في انتظار المعجزة

بقلم الدكتور عبد العزيز الأهواني

— ١ —

كنت اود ان احتفظ به سراً بيني وبين نفسي ، وان ادعه في مكانه الأمين ، هنالك في ركن الأسرار ، حيث استقر منذ سنوات بين اخوته السابقين . كنت اود الا تقتحمه عين ولا تمتد اليه يد. ولكنك — ياصديقي الحبيب — ابيت علي هذا ، والححت في ان تنظر اليه . وكلما كففتك ازددت عناداً واصراراً .

واخشى ما اخشاه عليك وعلى نفسي ان نلقى مالقيه لذريق آخر ملوك القوط في اسبانيا . اتذكر الأسطورة ، وما تحدث به القدماء عن البيت المقفل في طليطلة ، حين كان كل ملك قوطي يضع عليه قفلا ، حتى تراكمت هنالك عشرات الاقفال بعدد الملوك . ولما جاء دور لذريق لم يطق احتمال السر ولم يستطع الصبر على المجهول . فأصر على ان يفتح البيت.وحذره رجال الدين مغبة ذلك وانذروه ، فأبى — كما ابيت انت — الا اصراراً وعناداً . ثم فتحه فوجده خالياً الا من الطلسم الرهيب . وجد لوحاً عليه صور لناس غرباء عن تلك الارض ، قد لبسوا العمائم وتنكبوا القسى العربية . ووجد تحت الصورة سطراً واحداً معدود الكلمات . ولكنها الكلمات التي خطها القدر « حين يفتح هذا البيت تفتح اسبانيا امام هؤلاء الناس » وخرج آخر الملوك من البيت محطم الآمال ، لأن ملكه قد تحطم .

ولكن صحبتك يا اخي عزيزة علي ، تستحق ان يضحي في سبيلها بكل شيء . ولئن قدر الله ان نفقد ملكاً ، فلن نفقد حنانا وحباً اغلى من الملك.

سألتني عن صمت يثير ريبتك وتحار في تعليله . فقلت لك ان يوم الكلام لم يجيء بعد . ولكنك لم تقتنع ، وأردت ان تجعل بيني وبينك موعداً ولما لم استطع تحديد موعد ازدادت ريبتك ، وغضبت حتى خشيت فساد ما بيني وبينك . وسأذكر لك الآن سر هذا الصمت . ولكن اعلم انك كلفتني من الحرج والعنت ما لو عرفته لكففت عن السؤال .

ولهذا السر خبر ، فاليك الخبر .

— ٢ —

كنت في مدريد ، وكان الوقت صباحاً ، فخرجت اسير نحو المكتبة الاهلية ، وانا حريص على ان انتهي من قراءة مخطوط شغلني طوال الايام السابقة ، وقدماي تعرفان الطريق بكل ما فيه من انحدار او التواء . حتى لو انني — فيما كان يخيل الي — اغمضت عيني لوصلت بي قدماي الى الباب الكبير في السور الخارجي ، ولاجتزته الى الفناء ودرت نصف دائرة ارتقيت بعدها الدرجات الواسعة ، حيث وضع تمثالان ، احدهما لألفونسو العاشر الملقب بالعالم ، والاخر للقديس سان ايزدور الاشبيلي ، رجلان عظيمان انجبتهما اسبانيا فيمن انجبت من عظماء الرجال . ولم اكد انتهي من صعود الدرجات في ذلك اليوم حتى وجدتني امام الباب الداخلي.ولكن الباب لم يكن مفتوحاً كما تعودت . يا للمفاجأة ! الباب مقفل مرة ثانية ! هل ادق الباب ؟ ولكن هذه الابواب الضخمة لم تخلق لمدقها يد زائر . وتلفت التمس حلاً لهذه الغريبة . ليس اليوم يوم الاحد . لا اشك في ذلك . لقد كنت في مصر انسى اعداد الايام من الشهر وزدت على ذلك في اسبانيا انني كنت انسى ايام الاسبوع . ولكن اليوم كان الجمعة ، كنت اعرف ذلك جيداً لسبب طارىء لا يستحق ان اذكره . وعدت انظر الى الباب ، ان هذه اول مرة اراه فيها مقفلا . كم هو جميل ! انه بما فيه من نقوش يشبه دفتي كتاب من مخطوطات القرون الوسطى التي كان يتأنق الصناع والرهبان في تزيينها . لقد صارت المكتبة كلها كتاباً ضخما هذا دفتاه .

وناداني احد الحفاظ بالمكتبة ، واعلن النبأ : انها مقفلة يومي الجمعة والسبت ، والاحد بطبيعة الحال . واستفسرته عن السبب فذكر سبباً . ومن الذي يعجز عن ذكر سبب وخاصة من لا ينتظر نقاشاً ؟ وعدت فهبطت الدرجات ، ودرت نصف الدائرة وخرجت من الباب الحديدي الى الشارع .

هل كنت حزيناً للنبأ ام كنت فرحاً ؟ لعلني كنت في الحالة النفسية التي تقترن دائماً بشخصية من شخصيات الأدب الاسباني القديم ،هي شخصية البكرو (El Picaro) شخصية ذلك الصعلوك الجوال الذي لايفكر في الامس ولا الغد ، وهو مع ذلك واقعي لا يجرى وراء الخيالات : ان البكرو هذا قد وهب الأدب الاسباني قصتين من اخلد القصص وامتعها قراءة . احداهما Lazarillo de Tormes والثانية Guzman de Alfarache ، كلتاهما الفت منذ اربعة قرون ، وظلت قيمتها تتجدد على مر الايام . وكأن البكرو — وقد كنت مشغولاً باخباره — قد اوحى الي بالفكرة ... لابد من انتهاز الفرصة ، والخروج من مدريد خلال هذه العطلة القصيرة . فان مدريد اضيق من ان تتسع للبكرو ، فهي مدينة حديثة نظيفة . وفوق ذلك تقيم فيها الحكومة ويكثر فيها رجال الشرطة .

— ٣ —

كنت في القطار يتجه بي نحو الشمال . وكانت في جيبي تذكرة طبع عليها (من مدريد الى أبله) . اخذ القطار يقترب من الحدود بين قشتالة الجديدة وقشتالة القديمة . وكنت كلما اقتربت من قشتالة القديمة داخلني شعور غامض بالرهبة والهيبة . ان هذه الارض الصخرية القاسية الجافة قد صنع فيها تاريخ اسبانيا وحضارة اسبانيا . انتشرت منها لغتها القشتالية ففرضت نفسها على الوطن الاسباني كله بما فيه عالم ما وراء البحار . ومنها خرج المحاربون الغلاظ الشداد يقاتلون العرب على كل شبر من تلك البلاد . ومنها خرج المغامرون الافذاذ الذين صاروا ابطال الملاحم في الشعر الاسباني ، وعلى رأسهم السيد القمبيطور الذي اغتصب بالنسبة من المسلمين .

وتذكرت أبله Avila التي اتجه اليها . وعجبت لم أختارها دون سائر المدن الاسبانية مكاناً لقضاء هذين اليومين . انها (مدينة القديسين) كما يسميها الاسبان . اتراه نداء خفياً دعاني الى بلد القديسة سانتا تريزا (Santa Teresa)? وأخذت استعرض ما اعرف عن القديسة التي تركت في اللغة القشتالية آثارا حية خالدة ، والتي صارت علما من اعلام التصوف المسيحي في العالم كله ، فوجدت ما اعرفه عنها يسيراً لا يروي ظمأ القلب الذي يريد ان ينفذ الى سر العظمة ، وان يتمثل حقائق السمو الروحي للممتازين من البشر . ولكن خبراً صغيراً الح علي ، هو ذلك الذي يروى عن القديسة حين كانت طفلة، فقد افتقدها اهلها ذات يوم وخرجوا يبحثون عنها ، فوجدوها تسير مجدة مع أخ لها صغير نحو الجنوب . فسألوها عن قصدها ، فقالت انها خرجت تبتغي ان تكون شهيدة . ووجدت ان اقرب

الطرق الى الاستشهاد ان تذهب الى ارض المسلمين ليقتلوها فتكسب بذلك الملكوت الألهي بأسهل الوسائل . يا للطفوله واحلامها ! ! ويا لعجائب البشر وما يتوارثونه بينهم ، وما يغرسونه في القلوب البريئة !

لم تكن الطفلة الموهوبة تعلم ان آخر المعاقل الاسلامية في الاندلس (غرناطة) قد سقطت قبل ميلادها بما يزيد على عشرين عاماً . لقد عرفت ذلك فيما بعد . ولكنها عرفت شيئاً آخر اعظم من هذا وأجل : عرفت ان ملكوت السماء لا يكسب بهذه السهولة ، وان المجد لاينال بالشجاعة السلبية . وانما ينال بالصبر والكفاح والقلق والأرق وبقهر النفس وتحطيم السدود والأغلال ، فكافحت حتى وصلت وخلدت .

— ٤ —

وبلغت أبله ، ونزلت وفي يدي حقيبتي الخفيفة . وتعرض لي من يريد اعفائي من حملها ، ومن يريد ان يرشدني الى الفندق ، ثم من يريد ان يريح قدمي من السير ، لهم مني شكراً ! وان كان لا يروقهم الشكر ! ! فلست في حاجة لمساعدة احد . ما جئت سائحاً وانما جئت حاجاً . فالسير له اجره ، وللتعب جزاؤه : المشاهدة والتأمل والهدوء . كل شيء كان جديداً ، كأني اسير في عالم مسحور . ثم وقفت امام اسوار المدينة . ان أبله مدينة مسورة . ما اعجب المدينة المسورة في القرن العشرين ! ! قرن الطائرة . انها المدينة الوحيدة — فيما اعلم — التي احتفظت بسورها كاملا بغير صدع ولا ثلم ولا شق . سور ضخم اصفر اللون زاده الاصيل صفرة على صفرته فبدا شاحبا عنيداً قاسياً . ودرت ببصري نحو السور الممتد المستدير ثم رددته في البوابة الضخمة العميقة الرهيبة : حديد وصخر .

ودخلت الى جوف المدينة وتركت البوابة خلفي كفكي الاسد . اي خاطر هذا ! ان شوارع المدينه من صخر كأنها ظهر ثعبان ، وجدران بيوتها من صخر . اتراني اتقدم الى جوف سجن ضخم ؟ ان الشوارع تضيق ، أتراه المطبق الذي يرد في كتب الأندلسيين والذي يلقى فيه خصوم صاحب المدينة ! ! وذكرت السور مرة اخرى . انني لا اراه الآن ، ولكنه سور كامل ؛ انه يحيط بالمدينة كلها ، لكأنه يخنق المدينة ويضغط على جوانبها ، فتنقلب شوارعها حارات وازقة . انه يضغط على جنبي أنا ... توقفت ، ونظرت الي امرأة في مدخل بيت ، ونظر الي رجل من نافذة في بيت آخر ... والظلام يزحف الى المدينة مع المساء ، لكأنني مقدم على كمين ولكأنها مؤامرة مدبرة ! كلا : لن ابيت داخل الاسوار ، لن ابيت في جوف المطبق ، لن ادع فكي الاسد تلتقيان وانا بينهما . ان في الارباض التي وراء الأسوار متسعاً لي ، فثم وجه الله . ورجعت من حيث دخلت ، وتنفست الصعداء ، لقد فك الحصار وتشتت المحاصرون . نعم لن ابيت في مدينة مسورة بعد اليوم . ونظرت الى السور من خارج المدينة وتبسمت وحمدت الله على النجاة .

ولم افكر اين امضي ، ولا اين اجد المأوى الذي اقضي فيه الليل . لقد عاد (البكرو) مرة اخرى يريد ان يسير على غير هدى والى غير غاية .

ورأيت شوارع فسيحة خالية قامت على جانبيها بيوت قصيرة من طابق واحد . ورأيت رجلا على مسافة مني يسير امامي . كنت ارى ظهره وعليه سترة مهلهلة وفي يده عصا ولحذائه صوت جميل الوقع . سرت خلفه ادور حيث يدور . فلا هو يلتفت ولا انا أسرع لألحق به . وكأنني كنت اعرفه ، وأترقب اللحظة التي يرد نظره الي ليراني اختلس السير خلفه . ستكون مفاجأة سارة لي وله . انه اما طحان واما صياد ، اثنان لا ثالث لهما . ولكن هل في قشتالة القديمة سمك ؟ انه سمك مجفف ، وهل يصاد السمك المجفف ايضاً؟

واذن فلا بد انه الطحان ...

وترامت الى اذني الانغام التي سجل فيها الموسيقي الاندلسي دي فالا (De Falla) رقصة الطحان في قطعته الرائعة عن الحب المسحور (El Amor Brujo) .

— ٥ —

وبلغت ميدانا واسعاً ولكنه مقفر . انه فضاء غير مزروع تناثرت فيه شجيرات قليلة جداً ، اربع او خمس ، تشبه الشجيرات البرية التي تنبت في الارض السبخة . نعم ان ارض الفضاء سبخة فقد علاها تراب احمر فيه رطوبة تلمع فيه حبات من ملح .

ورأيت في جانب من الفضاء كنيسة ضخمة . ليتها تكون مفتوحة لأدخلها واري ما فيها ! اني لاحسب إن فيها كنزاً يتوهج تحت اضواء هذا الشفق الذي شمل الأفق في هذا اليوم ، يوم الجمعة المبارك من فصل الخريف . ونسيت صاحبي الطحان فلم ادر اين ذهب . ولم اعد حريصاً على المفاجأة السارة التي كدت اقدمها اليه . لعله حزين لايفرحه شيء .

وتقدمت نحو الكنيسة . انها بسيطة .. لا ادري من اي طراز هي . ليست من الطراز القوطي السامق الشامخ ، وليست من الطراز الروماني الراسخ الرصين ، وليست من الطراز البروكو المزخرف المرقش . وليست ايضاً من طراز المدجنين الذي جمع بين الغرب والشرق ، بين المسيحية والاسلام . وكيف لا ، وقد بناه عرفاء مسلمون لمصلين مسيحيين . لم تكن الكنيسة منه ، ولكن كانت فيها بساطة المظهر الذي فيه . وحين لا اهتدي الى طراز كنيسة اقول بيني وبين نفسي انها من عصر النهضة. Renacimiento فاستريح . ولم ابعد عن الحقيقة كثيراً . لأنها ليست من الكنائس العتيقة التي يضرب الاسبان بها المثل فيقولون اقدم من كنيسة Mas Viejo Que Una Iglesia).

وجدت باب الكنيسة مفتوحاً . ولم اجد عنده احداً . والعادة فيما اظن ان يكون في هذه الساعة مقفلا ، وتذكرت المكتبة ... باب العلم مقفول وباب الدين مفتوح ! لا يمكن ان يكون الامر الا هكذا . وخلف الباب باب آخر يدفع فيدور . دفعته في رفق فدار ولكنه احدث صوتاً مضرساً . لشد ما اكره هذا الصوت! انه يخدش صفاء السكون ويفزع الملائكة فتنفر ، والعجب انني قلما دخلت كنيسة الا وجدت هذا الباب الداخلي يصدر مثل هذا الصرير الحاد الذي يثير الاعصاب . انه كلمة الكفر في التسبيح والابتهال . لعل القوم يخرسون هذا اللسان بقليل من زيتهم المبارك !

وذكرت الحقيبة في يدي . اهو فندق ام كنيسة ! وانحنيت في تؤدة ووضعت الحقيبة في زاوية هنالك. ووقفت وظهري للباب انظر — كأني ابحث عن الكنز المرتقب .

لم يكن في الكنيسة انسان ولكن كان فيها تراث الانسانية منذ ألفين من الأعوام . بل منذ وجد الانسان . هنا احلامه واوهامه وماضيه وحاضره وامله في المستقبل ايضاً، المستقبل المجهول الغامض البعيد، هنا السيل الذي يريد ان يجرف السد الأصم الرهيب . سد الموت ، والشعاع الذي يريد ان يخترق الحجاب المظلم الصفيق ، حجاب الفناء . ولكن ما هذه الابتسامة الهادئة التي ترتسم على هذه النافذة العالية اذ يتسرب منها ضوء الشفق ! اهي ابتسامة سخرية ترسلها الدنيا من خلف الجدران ام هي ابتسامة اطمئنان وتأييد وتأكيد ؟ واخذت انظر الى النوافذ الواسعة كأنها بوابات في اعالي الجدران على الجانبين . ان زجاجها ملون وان عليها نقوشاً وصوراً ورسوماً . لا اتبينها الآن ولكنها صور لآدميين على رؤوسهم تيجان من نور ، ولأطفال مجنحين

بغير شك وسرت الى الامام في بطء ، ويداي خلف ظهري ورأسي يدور . وعيناي تترددان بين النوافذ والسقف وتيجان الأعمدة ، ان الظلام قد هبط واخذ يتراكم في القاع ولكن في الاعالي ضوء وشعاع .

— ٦ —

ثم افقت مذعوراً كمن يفيق من حلم وكمن يسقط من برج شاهق . واختلج جسدي كله من رأسي الى قدمي كأنما مسته كهرباء . يا للهول ! لقد ضربت رجلي من حيث لا اشعر احد المصلين ، وتراجعت هلعاً الى الخلف . ونظرت تحت قدمي : ان جسداً انسانياً يتحرك وقد سعل في رفق . انها سيدة في ثوب أسود على رأسها غطاء . وجثوت على ركبتي هاتفاً متمتماً متلعثماً « سيدتي . الصفح والغفران ! ماذا اقول ؟ لم ارك يا سيدتي فاصفحي بربك واغفري لي ... » ولا أدري ماذا كنت اقول . ولكنني كنت كمن يوشك ان يدخل في غيبوبة ومن يكاد يفقد وعيه . واحسست كأن نوراً يتوهج ساطعاً امام بصري ثم يعقبه ظلام فيه ظلال وفيه اشباح ضخمة . وكان في اذني طنين كأنه الصمم . ومرت ثوان كأنها الدهر لم اسمع فيها شيئاً . واخيراً سمعت صوتا رقيقاً حنوناً مطمئناً يقول ان لا بأس عليك... ياسيدي. واخذت الدوامة تهدأ والطنين يتلاشى وينمحي ، وينجاب عن عيني الظلام .

ورفعت رأسي ونظرت ، فرأيت عينين رائعتين تنظران الي . فأعدت كلمات الاعتذار والاستغفار. انني حين اعتذرت اولا كنت اخاطب السمع، والآن اخاطب العينين الواسعتين . انهما تفهمان الكلمات وتجيبان . اننا حقاً حين نعتذر انما نخاطب العيون لا الآذان . وكل معتذر لا يرى عين من يعتذر اليه لا يثق بما يسمع من صفح . لقد صفحت ، نطقت بذلك عيناها . ولم استطع ان احول بصري عن الوجه الهادىء الجميل الذي ينعكس عليه شفق الشمس الغاربة ، فيزيده تألقاً وسكينة ويضفي عليه نوراً من ايمان عميق ، ولعلها ادركت ذلك ، فسمعتها تقول لي « اتجه الى المذبح وصل » فأفقت من ذهولي واطرقت . فقالتها مرة ثانيـــة . وسكت ثم قلت « ماذا اقول ؟» فتبسمت وقالت «الا تجد كلاماً ؟ الا تحفظ صلاة ! » قلت «احفظ، ولكن ما احفظه ليس بلغتكم » فقالت « ليس بهم ، صل باللغة التي تصلي بها فلا عبرة باختلاف اللغات » .

وعدت فأطرقت وقد احسست بدقات قلبي ترتفع ، حتى ليخيل الي انها تسمعها . لا بد من الصراحة ، نعم لا بد منها . فلست في مجال يخطر فيـــه النفاق على بال . ورأيت العاصفـــة تتجمع لتنطلق ... انني اعرف قشتالة القديمة ، واعرف قلوب اهلها . والقلب الذي يخفق في صدر هذا الكائن الجميل اعرفه جيداً . لقد خلق في قشتالة ، وفي أبله نفسها ، بلد القديسة الطفلة التي خرجت تلتمس الاستشهاد .

وفي لحظات احسست بالدم الحار يندفع الى قلبي ، لقـــد احتشدت جيوش ماض بعيد واقبلت من كل صـــوب ، ولمعت امام عيني صور تتعاقب كوميض البرق — مآذن عالية بيضاء تلتهب تحت اشعة الشمس في الشرق البعيد ، ورمال صفراء ظامئة تسير بينها قوافل طويلة الأعناق ، وصفوف من عمائم وجلابيب بعضها خلف بعض . وسمرت بصري في العينين الواسعتين وقلت :«سيدتي ان صلاتي لن ترضيك ؛ ان قلبي ليس مع يسوع ، وابنهالاتي لغير العذراء».

لقد حدث ما توقعته ، وكان لا بد ان يحدث . رأيت الذعر في العينين اللتين ازداد سعـــة ، وتبعه الشحوب في الوجه الدقيق الحاد ، ثم انفرجت الشفتان النحيلتان عن كلمة (Jesus) . ثم رأيت الذعر والشحوب يجيشان . لقد كنت كالمحارب الذي يعرف خطط عدوه كلها واحدة بعد واحدة . ونظرت الى اليد البيضاء تجمع اطراف الرداء المرسل،ورأيت القوام المعتدل ينتصب كالرمح وينجه نحو الباب . وتبعت الفتاة ببصري وهي تمضي بين الهرولة والسير . ولم اعد ارى شيئاً، ولكن حفيف الثوب كانت تصل همساته الكظيمة الى اذني ، ثم الصرير الحاد الضروس .

ووقفت وحدي في الكنيسة بين السكون الرهيب والضوء الخافت الغامض، وعادني الدوار والطنين مرة ثانية . وخيل الي ان الجدران تهتز وتميد وتكاد تنقض فوقي . وتنفست قدر طاقتي فأحسست بالهواء بارداً ثقيلاً يشق صدري شقاً ، وشممت رائحة البخور وفتائل الشمع المحترق فكدت اختنق ، ونظرت الى اللهب الضئيل عند المذبح قد اكتسى لوناً احمر .

ثم عاد الي بعض هدوئي وسمعت صوت سيارة تمر بجانب الكنيسة ، كان صوتها خشناً يصدر عن جهاز قديم — فآنسني هذا الصوت . ان هذه السيارة لا بد من انسان فيها ، فلن تسير وحدها . وربما كان فيها جمع بين رجال ونساء واطفال. ان على ظهر الارض ناساً. ان خارج الكنيسة حياة ومجتمعاً بشرياً . فلأخرج من هذا المكان . انني غريب فيه . ثم تمثل امامي الوجه الجميل الذي كان هنا منذ لحظات فائتة بصورته:العينين الواسعتين،والانف الدقيق ، والشرة البيضاء الناصعة عليها ظلال الشفق ، واليد اللينة الرقيقة التي طوت الثوب .

وعاد للكنيسة هدوؤها وروحانيتها وروعتها . وغشيتني موجة من حزن عميق ، ولكنه هادىء، أشبه بالتأملات. وارحمتاه للانسان ! كم غرست له من اشواك ! وكم صنعت له من اغلال ! وكم بنيت من اسداد. وسرت صوب الباب ثم انحنيت على الحقيبة في موضعها . ووضعت يدي على المقبض اريد ان ادفعه. وقد ثار في قلبي شعور بأني سأجد وراء الباب شيئاً يعيد البهجة الي . والتفت فودعت الكنيسة بنظرة اخيرة وارتفع الصرير،ثم انطبق الباب وبرزت للمدخل المشرف امام الكنيسة حيث الدرجات القليلة التي تهبط الى ارض الميدان .

— ٧ —

ان كانت المفاجأة هي وقوع ما لا ينتظر اصلاً، فلم تكن هنالك مفاجأة. اذ انني كنت اشعر في قرارة قلبي ان اللحظات العابرة القصيرة في الكنيسة لن تكون آخر العهد بيني وبين ذات العينين الواسعتين . وكنت وانا اخرج من الباب وألقي نظرة الوداع على المكان المقدس قد انتهيت الى قرار صممت عليه تصميماً . ذلك هو ان ابقى في (أبله) ما شاء الله ان ابقى حتى انظر مرة ثانية الى العينين الواسعتين، مهما كلفني ذلك من مشقة ومهما انتهت بي نتائجه. اما اذا كانت المفاجـــأة هي وقوع ما ينتظر في مكان دون مكان او زمان دون زمان ، فقد كان وقوف ماريا لويزا في الشرفة امام الكنيسة وقت خروجي منها مفاجأة اهتز لها كياني كله . رأيتها في جانب من الشرفة وعيناها نحو باب الكنيسة ، فتقدمت نحوها. وكنت كأني اعرفها من زمن بعيد ، بعيد جداً ، منذ عهد الطفولة . حتى اذا بلغتها مددت يدي وعيناي تنظران الى وجهها وقد سرى الفرح في كل ذرة من جسدي . ورأيت وجهاً من الجمال والروعة فوق ما تخيلت وفوق ما تصورت . من ذلك الجمال الفاتن الذي يجمع بـــين القوة واللين وبين البساطة والعمق ، والذي يتوهم الانسان حين ينظر اليه انه شيء خالد لا تنال منه الايام والليالي ولا يخضع لسطوة الزمن فلا يهت ولا يتغضن ولا يذبل . كانت ماريا لويزا تقف معتدلة مرفوعة الرأس ثابتة على الارض . انها العظمة نفسها والجلال نفسه ، ولكنها عظمة لا تبث رهبة ، وانما تثير حباً وتنشر سلاماً ، ومدت يدها الي ورأيت عـــلى وجهها الرصين ابتسامة خفيفة ترف فتنزل الطمأنينة على القلب وقلت لها « هل اعيد الاعتذار عما حدث اولاً او عما حدث ثانياً... او انتهيأ لسماع اعتذارك انت» فأجابت: «لا اعتذار منك ولا اعتذار مني فلم يصدر عن احدنا ما يوجب الاعتذار »

وازداد صوتها رقة وحناناً . واطرقت برأسها ، وكنت لا ازال قابضا على يدها ثم رفعت رأسها وقالت : « وانما اردت ان اخبرك انني سوف اصلي من اجلك » قلت: « تصلين من اجلي ! ما احوجني سيدتي الى صلاتك ! ان قلبي مثقل بالآلام والاحزان ومثقل بالخطايا ايضاً ولعل صلاتك – وهي صادقة مخلصة – تخفف عنه بعض اثقاله . وتبدد بعض ما فيه من ظلمات .. » ومرت فترة من سكون شامل كأنما كنا في صلاة عميقة في هذه الساعة الرائعة ساعة الغروب وامام هذا المكان العظيم ، بيت الله. ثم قطعت الصمت بقولها « ألك أم موجودة ؟ ! » ونظرت اليها كأنما استجلي حقيقة السؤال ، واستشف ما تريد من ورائه ، اذ لم اكن انتظره ولكنها ظلت هادئة .

وكدت انسى كل ما حولي الا وجه أمي المضيء النحيف الذي لقي ربه منذ عشرين عاماً . واغمضت عيني وسبحت في عالم بعيد فيه ما فيه من دموع واحزان . وتذكرت المرض الذي ألزم امي فراشها سنوات طويلة بطيئة قاسية، ذكرت وجهها الذي ظل محتفظاً بنوره وجلاله رغم الآلام والاحزان التي تركت عليه رسومها وظلالها . ولم تكن ماريا لويزا تحتاج الى جواب ، فقد قرأت في وجهي الجواب ولعلها رأت قطرة من دمع تحار بين جفني كنت احس بها . ثم عدت الى نفسي ونظرت اليها وقلت « لقد ماتت رحمها الله منذ كنت صبياً ... » وتمتمت بكلمات خافتة لم اسمعها . ثم قالت سأصلي من اجلك ومن اجلها ايضاً .

وشفعت هذا القول بسؤال آخر كان وقعه أغرب على نفسي من وقع السؤال الاول ، قالت : « هل تؤمن بالمعجزة ؟ » فابتسمت وكدت اضحك وقلت : « اي معجزة تقصدين ؟ » فأجابت في رصانة وفي شيء من حدة « المعجزة (El Milagro) ! المعجزة ! ان لها معنى واحداً يقصده كل من نطق بلفظها وكل من تحدث عنها . المعجزة ، لا شيء غيرها . »

فقلت : يا ...

فقالت : ماريا لويزا .

قالت : يا ماريا لويزا : اسمعي ما اقوله لك وافهميه جيداً. انني من قوم يؤمنون كلهم بالمعجزات . ومن ارضهم خرجت اخبار المعجزات . وقد تركتهم خلفي وكلهم ينتظرون المعجزات . ينتظرونها في كل شأن صغر او كبر ، ينتظرونها في التافه والجليل ، في الحسن وفي القبيح ، ايضاً ، ينتظرونها كل صباح وكل مساء منذ سنين وسنين ، ينتظرون ان تخلصهم من كل شيء ، ولذلك فهم لا يعملون شيئاً . حتى فقدت املي في المعجزة واصبحت لا ادخلها في حسابي ، وصرت اعتقد ان الايمان بها هو الذي جر على قومي الخراب ، ولو اشتهيت معجزة او تمنيتها لكانت المعجزة التي تنزع مني ومنهم انتظار المعجزة ...

كنت محتداً ونزعت يدي من يد ماريا لويزا . وكنت اتوقع ان تقابل حدتي بحدة وانفعالي بانفعال . ولكنني اخطأت في هذه المرة . لايزال في القلب القشتالي شيء لم انفذ اليه ! ظلت ماريا لويزا هادئة مطمئنة ومدت كلتا يديها الي ، واخذت يدي بين يديها وقالت في صوت كله حنان : « ولهذا سأصلي من اجلك . ولهذا سأنتظر لك المعجزة . فانتظرها ايضاً . ولا تجعلن ايمان الناس بها وانتظارهم لها مصدر شك لك او انكار منك ، فأن هذا منطق معكوس انتظرها . فأنني اصلي من اجلك وانتظرها لك . »

وأرادت ان تتحرك فضغطت على يديها وقلت: « لا تمضي. الى اين تذهبين؟ فقالت « سأذهب » قلت: « هل انتهى كل شيء ؟ » قالت: « لم ينته بعد» قلت: « متى ألقاك واين اجدك ؟ » قلت « حين تجيء المعجزة سوف تجدني .

وسحبت يدها من يدي وسارت في هدوء نحو الدرجات التي تفضي الى الميدان وانا انظر اليها ، وظلت انظر اليها وهي تمضي لاتلتفت خلفها حتى غابت عن ناظري . اجل ، لم ينته بعد كل شيء ، ولو انه انتهى لالتفتت ولقالت كلمة « الوداع » ولكنها لم تقلها . »

ذلك يا صديقي الحبيب تفسير صمتي . انني انتظر المعجزة ، انتظرها صباحاً ومساء ولعلها ان تكون قريبة .

القاهرة — **عبد العزيز محمد الأهواني**

مُسَابقة «الآداب» الشِعْرِيّة

تدعو « الآداب » شعراء العربية في مختلف اقطارهم الى المشاركة في مسابقة شعرية تتناول الموضوعات التالية :

اولاً – عودة اللاجئين
ثانياً – الوحدة العربية
ثالثاً – المرأة في المجتمع العربي
رابعاً – حرب على الاستعمار
خامساً – حرب على الاقطاع

الشروط

١ – يحق للشاعر ان يشترك في اكثر من موضوع واحد
٢ – يحسن بالقصيدة ألا تتجاوز مئة بيت ولا تقل عن ثلاثين
٣ – لا ضرورة لوضع اسم مستعار للشاعر .
٤ – مدة المسابقة من اول نوار الحالي ١٩٥٤ حتى آخر تشرين الاول القادم ١٩٥٤ .

الجوائز

الاولى – ٣٠٠ ليرة لبنانية او ما يعادلها
الثانية – ١٢٥ « « « «
الثالثة – ٧٥ « « « «